أن يكون حجة على العالم وكذلك يحتمل أيضا أن يكون محنة له وكفارة لذنوبه وإذا كان هذا أمرا غائبا
عنه لم يجز أن يتكبر على العابد بل يجب أن يتواضع له فإن قلت فإذا صح هذا فينبغي أن يكون العالم أن يرى
نفسه فوق العابد لحديث فضل العالم على العابد فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره
وخاتمة الأمر مشكوك فيها فيحتمل أن يموت بحيث أن يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق
بذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقته به وإذا كان هذا ممكنا كان على
نفسه خائفا فإذا كان كل واحد من العالم والعابد خائفا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره
فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء وذلك يمنعه من التكبر بكل حال
فهذا حال العابد مع العالم فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين ومكشوفين
فينبغي ألا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله تعالى
وأما المكشوف حاله فإنه لم يظهر لك من ذنوبه إلا ما يزيد عليه ذنوبك فلا ينبغي أن تتكبر
عليه ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنوبا لأن عدد ذنوبك وذنوب غيرك لا تقدر على إحصائها
حتى تعلم الكثرة نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والزنا ومع
ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والغل والرياء واعتقاد
الباطل والوسوسة في صفات الله وتخيل الخطأ فيها كل ذلك شديد عند الله فربما جرى عليك
في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به ممقوتا عند الله وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من
طاعات القلوب من حب الله والإخلاص وخوف وتعظيم ما انمحت عنه خطاياه وقد عفى ذلك عنه
سيئاته فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوقك بدرجات وهذا ممكن والإمكان البعيد
فيما عليك ينبغي أن يكون قريبا عندك إذ يكفيك أن تكون مشفقا على نفسك لا تشتغل فيما هو محتمل لغيرك
بل فيما هو مخوف في حقك فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك
فإذا تفكرت في هذا الخطر العظيم كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق
غيرك وقد قال وهب بن منبه رحمه الله ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال وعد
تسعة حتى بلغ العاشرة فقال العاشرة وما العاشرة بها ساد مجده وبها علا ذكره أن يرى
الناس كلهم خيرا منه وإنما الناس عنده فرقتان فرقة هي أفضل منه وأرفع وفرقة هي شر منه

وأدنى فهو متواضع للفرقتين جميعا بقلبه إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به
وإن رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفا من العاقبة ويقول لعل
بر هذا باطن فذلك خير له ولا أدري لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله فيرحمه ويتوب عليه
ويختم له بأحسن الأعمال وبري أنا ظاهر وذلك شر لي فلا آمن فيما أظهرته من الطاعة أن يكون
الآفات دخلتها فأحبطتها وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء الأزلي
بشقوته فما له سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال نعم إذا غلبه الخوف وأكل الهم جبرا من نفسه وذلك
هو الفضيلة كما روي أن عابدا أوى إلى جبل فرأى في النوم ائت فلانا الإسكاف فسله أن يدعو
لك فأتاه فسأله عن عمله فقال أصوم النهار وأكتسب فأتصدق ببعضه وأطعم عيالي
ببعضه فرجع وهو يقول إن هذا لحسن ولكن ليس كالتفرغ لطاعة الله فأتى في النوم ثانيا
وقيل له ائت الإسكاف فقل له ما هذا الصفار بوجهك فأتاه فسأله فقال له ما رأيت
أحدا إلا وقع لي أنه ينجو وأني أهلك فقال العابد بكلمة والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة
قوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أي يؤتون الطاعات وقلوبهم خائفة
من عدم قبولها وقال تعالى إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين وقال تعالى إن الذين هم من خشية
ربهم مشفقون ووصف الله الملائكة مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم للعبادة
بالإشفاق فقال يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم من خشيته ربهم مشفقون فمتى زال
الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء الأزلي وينكشف عند خاتمة الحال غلب الأمن من
مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك والتواضع صح
دليل الخوف والخوف مسعد فإذا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق واستصغارهم
أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير إلا أن
القلب بعد هذه المعرفة قد يضمر التواضع ويدعي البراءة من الكبر وهو يدعي كاذبة فإذا
وقعت الواقعة عادت النفس إلى طبعها ونسيت وعيدها فعن هذا لا ينبغي أن
يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن يكمل بالعمل ويجرب بأفعال المتواضعين
في مواضع هيجان الكبر من النفس وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على

Copyright © King Saud University